

الإبتاع في العربية

الدكتور حسن نصر

(جامعة القاهرة)

وطبيعي ان يلقف تلاميذها عنهما هذه الامثلة، ويسموا وراء نظائرها ، ثم يمنحوها لتلاميذهم . فترد في كتب الإبتاع أسماء يونس بن حبيب والاصمعي وابي زيد وابي عبيدة والكسائي وقطرب وابي عمرو الشيباني والفراء والاحمر واليزيدي وابن الاعرابي ، وتشير المعاجم الى ما تعالج من امثله ، منذ العين للخليل . بل افرد ابن دريد في جملته فصلا للإبتاع (4) .

وبالرغم من ذلك ، اختلف العلماء في تصورهم للإبتاع نتيجة اختلافهم في الصفات التي اشترطوا توافرها في الالفاظ التي يمكن ادخالها فيه . ويحسن بنا - حين نرفب في تتبع هذه الشروط - ان نعالجها وفق التصنيف التالي :

1 - من حيث المعنى : ذهبنت جماعة من المتقدمين الى ان اللفظ التابع لا معنى له اصلا . واقدم من وصلت اليئامنه اقوال تذهب هذا المذهب ابن الاعرابي (231 هـ) . قال ثعلب في اماليه (5) : قال ابن

الإبتاع ظاهرة لغوية عامة لا تنفرد بها اللغة العربية ، بل تنبه من عرف غير العربية من القدماء الى وجودها في هذه اللغات ، فقال احمد بن فارس (1) : « وقد شاركت المعجم العرب في هذا الباب » . ونستطيع نحن ان ندرج تحت « المعجم » من نعرف لفته من الشعوب الاوربية مثل الانجليز والفرنسيين .

وفطن اللغويون منذ عهد مبكر الى ظاهرة الإبتاع . فأورد ابو عمرو بن الملاء رأس مدرسة البصرة امثلة منها . جاء في كتاب ابي الطيب اللغوي (2) : « قال ابو عمرو : سمعت اعرابيا يقول لآخر : انك لتحسب الارض هلي حيصا بيصا ، بكسر اوله .. وقال ابو عمرو : يقال : رجل طب لب . وهو العالم .. » وذكر ابو الطيب ايضا مثالا منه من رأس مدرسة الكوفة ، قال (3) : « حكى اللحياني من ابي جعفر الرؤاسي انه يقال للرجل : انه لمجنون مخنون .. »

(1) الصاحبى 226 . الثعالبي : فقه اللغة 566 . السيوطى : المرهر 1 : 414 .

(2) الإبتاع 14 ، 77 .

(3) الإبتاع 39 .

(4) 3 - 429 .

(5) السيوطى : المرهر 1 : 414 ، 416 . وانظر احمد بن فارس : الصاحبى 226 ، والإبتاع 28 .

مكان عمير بجير . فالعمير من العمارة ، فعيل
بمعنى مفعول ، ويجير اتباع .. » .

ونجد امثلة اخرى للتابع فيها معنى معروف ،
غير انه لا يستعمل بصيغته هذه وبمعناه هذا منفردا ،
بل لا بد ان يجتمع مع اللفظ الذي يتبعه . ويمكن
ان تقسم هذه الامثلة الى قسمين : (1) قسم يكون فيه
التابع مرادفا للفظ المتبوع . قال (11) : « ويقال يوم
مكيك اكيك ، ويوم مكك لك : اذا كان شديد الحر .
والاكيك بمعنى الكيك ، الا انه لا يفرد . قال الراجز :

يوم مكيك يعصر الجلمودا
يترك حمران الرجال سودا
وليلة فامدة فمودا
سوداء تفشي النجم والفرقودا

.. وانه لكثير بشير .. والبشير من قولهم : ماء
بشر : اي كثير . الا انه لا يقال : شيء بشير اي كثير
الا على وجه الاتباع .. ويقال : مائق دائق ، من
قولهم : رجل مدوق : اي محقق والدوق الحقيق ،
وكذلك الموق . يقال : ماق الرجل بموق موقا . قال
الراجز :

يا ايها الشيخ الكثير الموق
ام بمن وضح الطريق

ولا يتكلم بالدائق مفردا . ويقال : انه ليموق
مواقة ومؤوقا ، ودائق يدوق دواقة ومؤوقا ايضا .
(ب) والقسم الثاني لا يرادف فيه التابع متبوعه بل
يختلف معناهما ، غير انه لا يفرد ايضا بصيغته
ومعناه المرادين في الاتباع . قال (12) : « ويقال :
شحيح انيح : من قولهم : انح بحمله يأنح انوحا : اذا
تزحر به من ثقله ، ولا يفرد الانيح .. ويقال انه
لشحيح بحيج ، وهو من البحة . ولكن لا يجول
افراده .. تقول العرب : لا بارك الله فيه ولا تاركه .
ولا يقولونه الا هكذا . فهو - وان كان مأخوذا من
الترك - فلا معنى له في هذا الوضع الا الاتباع »

الامرابي : « سالت العرب : اي شيء معنى شيطان
ليطان ؟ فقالوا : شيء تند به كلامنا : نشده .
وتابعه الحسن بن بشر الامدي (371 هـ) الذي اعلن
(6) : التابع لا يفيد معنى اصلا ، ولهذا قال ابن
دريد : سالت لها حاتم عن معنى قولهم : بسن ،
فقال : لا ادري ما هو . وسار وراهما في هذا
الطريق ابن الدهان (7) الذي راي ان التابع غير
مبين معنى بنفسه من نفسه . ويكاد هذا القول يكون
ما قاله فخر الدين الرازي ، وان صب كلامه على انكار
الترادف بين التابع والمتبوع حين قال (8) : « ظن
بعض الناس ان التابع من قبيل المترادف لشبهه به .
والحق الفرق بينهما ، فان المترادفين يفيدان فائدة
واحدة من غير تفاوت ، والتابع لا يفيد وحده شيئا ،
بل شرط كونه مفيدا تقدم الاول عليه . »

وخالفت جماعة اخرى من ذكرتهم ، ولم
يشترطوا عدم المعنى ، اذ رآوا ان التابع قد يكون له
معنى وقد لا يكون . وينتمي الى هذه الجماعة ابو ملي
القالبي ، وابو الطيب اللغوي ، واحمد فارس ، وابن
بري ، والتاج السبكي . قال الاخير برد على
الامدي (9) : « التحقيق ان التابع يفيد التقوية ،
فان العرب لا تضعه سدى . وجهل ابي حاتم بمعناه
لا يضر بل مقتضى قوله : انه لا يدري ، معناه ان له
معنى ، وهو لا يعرفه . »

وعندما نتبع امثلة الاتباع عند ابي الطيب
اللغوي نخرج بصور مفصلة محددة . فاننا نجد عنده
امثلة لا معنى للتابع فيها ويمتنعها اسم الاتباع لانها
الاصل فيه . قال (10) : « قال قطرب : يقال : بسلا
واسلا : اي حرام محرم . والبسل هاهنا الحرام ،
والاسل اتباع . قال الشاعر :

ايثبت ما قلتتم ، ولفى زيادتي
يدي - ان اسيفت هذه لكم - بسلا

اي بيعتي التي اعطيتكم يدي بها حرام عليكم ..
وانه لكثير بشير بدير بجير : كله اتباع .. ويقال :

(6) الزهر 1 : 15 ، 4 . (7) الزهر 1 : 424 . (8) الزهر 1 : 415 . (9) الزهر 1 : 416 .

(10) 20 ، 13 ، 5 . (11) 8 ، 13 ، 42 . (12) 7 ، 17 ، 28 .

ولا يعطينا كتاب احمد بن فارس مثل هذه الصورة الواضحة . ولعل سبب ذلك انه لم يفرد له للاتباع . بل جعله - كما يبين من عنوانه - « للاتباع والمزاوجة » . وقد يتبادر الى الذهن ان المؤلف يعدهما شيئا واحدا . ولكن ذلك غير صحيح . فهو يعلن في السطر الاول من كتابه (13) : « هذا كتاب الاتباع والمزاوجة ، وكلاهما ... » فيفرق بينهما ، كذلك يورد في داخل الكتاب من التعليقات ما يؤكد هذه التفرقة . قال (14) : « قال الاصمعي : رجل خياب تياب . قال : خياب : من خاب ، وتياب تزويج ، وهو يصلح ان يكون اباما » .

ولم يقتصر المؤلف على المزاوجة . بل اورد في كتابه امثلة قليلة مما سماه « الاسجاع » و« الامثال » . على الرغم انه اعلن في آخر الكتاب انه خصص لها كتابا . قال (15) : « وسترى ما جاء في كلامهم في الامثال ، وما اشبه الامثال من حكمهم على السجع ، في كتاب « امثلة الاسجاع » ، ان شاء الله تعالى » . وعلى الرغم انه يعترف ان الاسجاع ليست من صنف الكتاب ، قال (16) : « ومن الاسجاع . وليس من هذا الباب : قول بالغ الدابة : برئت اليك من الجماح والرصاح » .

واورد ما سماه تاليفا للكلام ، وتاكيدا ، دون ان يبين ماذا يقصد من ذلك ، وما صلته بالاتباع ، قال (17) : « ومما يراد به تاليف الكلام قولهم : ارب فلان ، والرب ، فهو مرب وملب : اذا اقام » . وقال (18) : « لا افعله سجييس عجيس : يريدون الدهر . الاصمعي : لا آتيك سجييس عجيس : اي الدهر ، وسجييسه : آخره ، ومنه قيل للماء الكدر : سجييس ، لانه آخر ما يبقى . والعجيس تاكيد ، ونستنتج من بعضها الآخر ان التابع له معنى معروف ، ولا يهم ان يكون هذا المعنى مرادفا لمعنى التبع او مختلفا عنه . قال مثلا (22) : « الحياني : ما عنده على اصحابه تعريج ولا تعويج : اي اقامة وفلان لا يغير ولا يميز ، يقال للميرة الغيرة ايضا .. ويقال ذهب حبره وسبره . الحبر والسبر : الجمال والبهاء » . وقال (23) : تقول العرب : انه لسائب لاسب . فالسائب : الجائع . والاسب : الممي الكال ... ويقولون : خب صب . فالصب : البخيل المسك . والخب : من الخب ... وما عنده

(13) 28 . (14) 29 . (15) 70 . (16) 37 ، 43 . (17) 30 . (18) 49 .

(19) 60 . (20) 61 . (21) 35 ، 54 ، 68 . (22) 34 ، 42 . (23) 29 ، 52 .

فيض ولا فيض : اي كثير ولا قليل . ويقال :
الإعطاء والمنع .

2 - من حيث الصورة : اقدم من تناول هذا
الجانب صراحة أبو علي الثاني ، الذي فطن الى اتحاد
الحرف الأخير في التابع والمتبوع ، او ما سمي بعد
ذلك اتحاد الروي . قال من العرب (24) : «مذهبهم
في الاتباع ان تكون اواخر الكلم على لفظ واحد مثل
القوافي والسجع» .

ولكن ابا الطيب وابن فارس رويوا اتباعا لم يلتزم
الروي الواحد . قال ابو الطيب (25) : « يقال في
الدعاء على الرجل : جوها وجودا وجوسا . فالجود
هو الجوع بعينه . وقولهم جوسا اتباع » . وقد نبه
ابن فارس على هذه الظاهرة الشاذة عندما اوردته ،
فقال (26) : «ومما لم يجيء على روي الاول جوها له
وجودا وجوسا» . ودفعه هذا الى مدم اشتراط
الروي الواحد ..

وفطن ابن فارس ايضا الى ان اكثر الاتباع
يتماثل التابع والمتبوع فيه في الوزن وان كان
ذلك ليس بالشرط الواجب . فقد اورد في الاتباع
(27) : « يقولون : وهو لك ابدا سمدنا سمرمدا .. »
واكثر ابو الطيب من امثلة الاتباع غير المتماثل الوزن .
مثل (28) : « يقال : لا دريت ولا البيت . مقصور
اوله ويقال : جوها ديقومها ، اذا دمي على
الانسان .. ويسب الرجل فيقال : رغبما دفما
شغفما . وفعلت ذلك على رغبه ودغفه وشغفمه » .
ولذلك يحق لنا ان نقول ان تاج الدين السبكي اخطأ
حين قال (29) : « فالتابع من شرطه ان يكون على
زنة المتبوع » .

ويؤكد لنا هذا ان احسن تعريف ينظر الى
هذا الجانب للاتباع هو ما جاء به احمد بن فارس ،

واخذه منه الثعالبي حين قال (30) : « الاتباع : ان
تتبع الكلمة على وزنها او رويها اشباها وتوكيدا » .
فاذا كان اتحاد الروي غير لازم ، واتحاد الوزن غير
محتم ، فان الاتباع لا يخلو منهما معا .

3 - من حيث التعبير : اجمع الذين تعرضوا
للاتباع ان اللفظ التابع لا ينفصل عن المتبوع ، سواء
كان له معنى او لم يكن ، ولا يجيء في التعبير
منفردا مطلقا . واتخذ ابو الطيب من انفراد الكلمة
الثانية المقياس الذي اعتمد عليه في الفعل بين الاتباع
والتوكيد . فما لم ينفرد فيه اللفظان سماه اتباعا .
وما انفرد فيه اللفظ الثاني سماه توكيدا . ولكن ابن
فارس اقر في مرة واحدة وجود اتباع ينفرد .
قال (31) : « ويقال : خراب يباب . وقد ينفرد
اليباب . قال عمر بن ابي ربيعة :

كست الرياح جديدها من تربها

دقفا واصبحت المراض يبابا

فهذا اتباع الا انه افردته » . اما ابو الطيب فقد
تخلص من هذا المأزق بان جعل امثاله في
التوكيد (32) ..

واشترط الكسائي وابو عبيد وابن بري الا
يعطف الاتباع بإداة . قال ابو عبيد في غريب
الحديث (33) : « قال الكسائي .. واما حديث آدم
عليه السلام : انه استحرم حين قتل ابنه ، فمكث
مائة سنة لا يضحك . ثم قيل له : حياك الله وبياك .
قال وما بيباك ؟ قيل : اضحكك . فان بعض الناس
يقولون في بيباك : انه اتباع . وهو عندي - هلسى
ما جاء تفسيره في الحديث - انه ليس باتباع .
وذلك ان الاتباع لا يكاد يكون بالواو ؛ وهذا بالواو ..
ومن ذلك قول العباس في زمزم : هي لشارب حل

- (24) الامالي 2 : 217 . (25) 35 . (26) 54 . (27) 38 . (28) 10 ، 42 ، 58 .
(29) المزهري 1 : 416 . (30) الصاحبي 226 . فقه اللغة 566 . (31) 29 . (32) 111 .
(33) المزهري 1 : 415 .

وبل . فيقال : انه ايضا اتباع وليس هو عندي
كذلك لمكان الواو .

وجاء في لسان العرب تليقا على قولهم : جوما
ونوما (34) : « قال (ابن بري) : والصحيح ان هذا
ليس اتباعا لان الاتباع لا يكون بحرف العطف ،
والاخر ان له معنى في نفسه ينطق به مفردا غير
تابع . »

ولكن ابا الطيب اللغوي (35) رفض هذا الرأي،
ورد عليه ردا حسنا، معتمدا على مسلك العرب في
تعبيرهم . فقد رآهم يقولون : هذا جائع نالج ،
فدل على انه اتباع . ورآهم يقولون في النساء على
الانسان : جوما ونوما ، فادخلوا الواو . فلو اعتمدنا
عليه قلنا انه ليس اتباعا . ومحال ان تكون الكلمة
الواحدة مرة اتباعا ومرة غير اتباع . اذن ليس
الاعتبار بوجود الواو او عدمها .

ونستبين من دراسة امثلة الاتباع انه ليس من
المحتم ان يتألف من لفظين فقط ، بل قد يتألف من
ثلاثة ليقال (36) : انه لحسن بسن نسن . ولحمه
خطا بظا كظا : وانه لتبجح شقبح لقيح . ويبدو انه
تألف احبانا من اكثر . قال ابو الطيب (37) : « يقال
في الكثرة : انه لكثير نشير بشير بدير عقير ، وعبير
ايضا . »

4 - من حيث الغرض : اول من تعرض للغرض
من الاتباع الكسائي ، واعلم انه يراد منه التوكيد
قال (38) : « انما سمي اتباعا لان الكلمة الثانية انما
هي تابعة للاولى على وجه التوكيد لها . ويؤكد لنا
صحة هذا القول الجواب الذي تلقاه ابن الاعرابي من
العرب حيث سألهم عن معنى شيطان ليطان . »

واتفق ابو علي القبالي (39) مع الكسائي . غير
انه يقصر التوكيد على نوع واحد من الاتباع ، ذلك
الذي يكون فيه اللفظ التابع بمعنى المتبوع .

ووافقهما ابن الدهان ، وجعل الاتباع من
قبيل التوكيد اللفظي ، واتى بالمثل التي تدغم
رأيه . قال السيوطي (40) : « قال ابن الدهان في
الغرة في باب التوكيد : منه قسم يسمى الاتباع نحو
مطشان نطشان ، وهو داخل في حكم التوكيد عند
الاكثر . والدليل على ذلك كونه توكيدا للاول غير
مبين معنى بنفسه من نفسه ، كاتبع وابصح مع اجمع
.. والذي عندي ان هذه الالفاظ تدخل في باب
التوكيد بالتكرار ، نحو رايت زيدا زيدا ، ورايت
رجلا رجلا . وانما غير منهما حرف واحد لما يجيئون
في اكثر كلامهم بالتكرار . »

واعلم السيوطي (41) وجود قوم يفرقون بين
الاتباع والتوكيد . واعتمادهم في هذه التفرقة على
امرئين : اولهما ان الفاظ الاتباع تختلف عن اتبع لانها
تجري على المعرفة والنكرة، على حين لا تجري اتبع
الا على المعرفة ، ولانها غير مفتقرة الى تأكيد قبلها
بخلاف اتبع . والثاني ان الاتباع ما لم يحسن فيه
واو العطف . والتأكيد تحسن فيه الواو .

ويتفق مع هؤلاء تاج الدين السبكي الذي قال
(42) : « الفرق بينه وبين التأكيد ان التأكيد يفيد مع
التقوية نفي احتمال المجاز . وايضا فالتابع من شرطه
ان يكون على زنة المتبوع والتأكيد لا يكون كذلك »

ونستطيع ان نضم اليهم ابا الطيب اللغوي لانه
جعل الواو التي ادخلها في كتابه صنفين : الصنف
الاول سماه الاتباع ، وهو ما لا ينفرد اللفظ فيه ابدا .
وسمى الثاني التوكيد ، وهو ما يمكن ان يستقل لفظه
الثاني بنفسه . وبرغم ذلك لم يكشف لنا ابو الطيب
الغرض من الاتباع . ولعله تعرض لذلك في الجزء
المفقود من مقدمته .

اما احمد بن فارس فرأى ان الاتباع لا يقصد
الى التأكيد وحده ، بل اليه والى ما سماه الاشباع

(34) مادة نوع . (35) 3 . (36) ابو الطيب 71 ، 72 ، 76 ، 77 ، 93 ، 96 ، 99 .

(37) 62 . (38) الزهر 1 : 415 . (39) الامالي 2 : 208 . (40) الزهر 1 : 424 .

(41) الزهر 1 : 424 - 25 . (42) الزهر 1 : 416 .

دون ان يحدده ، كما نستبين في قوله الذي اوردته سابقا .

ويؤدي بنا هذا الى ان العلماء لم يتفقوا على تصور واحد للاتباع ، وان بعضهم اعطاه صفات حرمة بعضهم الآخر اياها . وكانت الثمرة الطبيعية لهذا ان اختلفت الاقسام التي وضعوها له . واقدم ما بين يدي من اقسام ما اضطلع به ابو علي القالي : وكشف عنه في قوله (43) « الاتباع على ضربين :

فضرب يكون فيه الثاني بمعنى الاول . فيؤتى به توكيدا ، لان لفظه مخالف للفظ الاول .

وضرب فيه معنى الثاني غير معنى الاول » .

ويؤخذ على هذا التقسيم انه اهلل ما لا معنى له من الاتباع ، وهو الاصل . وصورة التابع . وقد فطن احمد بن فارس الى هذا النقص واراد ان يتجنبه . فجاء بتقسيمين لا واحد . نظر في الاول منهما الى صورة التابع ، وفي الثاني الى معناه . قال (44) : « هذا كتاب الاتباع والمزاوجة . وكلاهما على وجهين :

احدهما ان تكون كلمتان متواليتان على روي واحد .

والوجه الآخر ان يختلف الرويان .

ثم تكون بعد ذلك على وجهين :

احدهما : ان تكون الكلمة الثانية ذات معنى معروف . الا انها كالاتباع لما قبلها .

والآخر : ان تكون الكلمة الثانية غير واضحة المعنى ولا بنية الاشتقاق » .

ويمكن ان ناخذ على هذا التقسيم ايضا انه اهلل الوزن .

واشمل تقسيم للاتباع هو الذي قام به الاستاذ عز الدين التنوخي ، وقال فيه : « ان الاتباع يكون في الاسماء وفي الافعال :

1 - الاتباع الاسمي قسمان :

أ ، اما ان يكون التابع متصلا بالتبوع وبمعناه ، اوليس له معنى ، ثم لا يجيء مفردا .

(43) الامالي 2 : 208 .

(44) 28 .

وهو نوعان :

1 - نوع يجيء التابع فيه بلفظ واحد

بعد التبوع ، فهو حسن بسن ، وحاد يار .

2 - نوع يجيء فيه لفظان بعد التبوع ،

نحو حسن بسن قسن ، ويكثر ان تكون الكلمة التابعة مبدوءة بميم نحو صقر مقر ، وشذر مدر .

(ب) واما ان يكون التابع متصلا بالتبوع وله

معنى ، ولا يجيء مفردا كما هو في القسم نحو عطشان نطشان .

2 (والاتباع الفعلي :

1 - والافعال في هذا القسم الثاني قد تكون

ظاهرة ولفظ واحد نحو عيس ويسر .

2 - وقد تكون مقدرة كالمصادر التي قدرت

افعالها نحو قبحا له وشقحا ..

وقد يجيء الاتباع الفعلي بلفظين تابعين نحو :

لا بارك الله في الشعبي ولا تارك ولا دارك » .

والحق ان الاتباع ظاهرة لغوية ، واسعة النطاق

متعددة الاشكال . كثيرة الاسباب والغايات . ويجب

ان ننظر اليها في ضوء من اشكالها الاخرى لنحسن

رؤيتها ، ونتم تصورها ..

فاللغة عرفت الوانا اخرى من الاتباع ربما لا

ترد على الخاطر في هذه الدراسة ولكن ذلك واجب ،

لأنها ذات صلة بما نتحدث عنه الآن .

فقد اجري العرب - وغير العرب - الوانا من

الاتباع . فطن اليها اللغويون والنحويون والصرفيون ،

ودرسوها ، ولكنهم لم يربطوا بينها وبين ما بين

ايدينا الآن من اتباع . ونحن حين ننظر في هذه

الاولان نستطيع للتيسير ان نصنفها في فئتين : الفئة

الاولى جرت في المفردات اللغوية ، والثانية في

المركبات .

اما المفردات فقد خضعت لتوهمين من الاتباع :

نوع جرى في حركاتها وآخر في حروفها . وكلا

التوهمين يضم المطرد من الاتباع وغير المطرد .

اما الاتباع المطرد في حركات المفردات فيتمثل في عدة ابواب نحوية وصرفية .

فالتقياس في جمع المؤنث السالم من الالفاظ الثلاثية الساكنة الوسط ان تتبع مينا فاهها . فما كان على فعلة جمع على فعلات مثل ثمرة وتمرات ، وما كان على فعلة جمع على فعلات مثل حجرة وحجرات الا اذا كانت الكلمة معتلة العين او اللام . او كان المتكلمون من بني هذيل او تميم . فلهم احكام اخرى .

والتقياس في الفعل الماضي عند بنائه للمفعول : ان كان مبدوءا بتاء زائدة ان يضم حرفه الثاني اتباعا لاوله مثل استخرج المعدن . والتقياس في فعل الامر الماخوذ فعل يفعل ان تضم همزة الوصل فيه اتباعا لضمة مینه . .

والتقياس عند بني تميم فيما كان على فعل الحلقى العين من الافعال كشهد ، والاسماء كفخذ ، والصفات كمحك ، وما كان على فعل الحلقى العين ايضا كسميد ورفيف ، التقياس عندهم فيهما اتباع الفاء للعين فيقولون شهد وفخذ ورفيف .

وقال عيسى بن عمر : ان كل (فعل) كان ، فمن العرب من يخففه ، ومنهم من يشقله نحو عسر وعسر ، ويسر ويسر (بالسكون والضم) .

وان كان عين (فعل) المفتوح الفاء حلقيا ساكنا جاز تحريكه بالفتح ، نحو الشعر والشعر والبحر والبحر ، (بالسكون والفتح) ، وعد ذلك اتباعا لفتحة الفاء .

واما الاتباع غير المطرد في حركات المفردات فأمثل له بقولهم : المغيرة ، ابعوا الميم للفسين ، ومنتن : ابعوا الميم للتاء ، وانبؤله : ابعوا الباء للهمزة ، ومنذ : ابعوا الميم للذال عند من قال : ان اصلها : من ذو ، وغيرها .

كل هذه الالوان من الاتباع : المطرد وغير المطرد ، انما ارتكبتها العربية لتيسر على المتكلم النطق . لبدلا ان تقوم اجهزة النطق بميلين مختلفين في موضعين متقاربين مما قد يتطلب من الناطق جهدا او وعيا ، كفته اللغة مؤونة ذلك بازالة الاختلاف وجعل الملمين متشابهين . واذن فالغرض من الاتباع في مثل هذه الاحوال تيسير النطق وجعله عفويا .

واقصد بالاتباع في حروف المفردات ما يجري فيها حين تخضع لابدال او ادغام . فالتقياس المطرد في نون انفعال من الافعال المبدوءة بميم جواز قلب نونها ميمتا متابعة لميم الفعل ثم ادغام الميمين معا . فنقول امحى في انمحي . والتقياس المطرد في تاء افتعل من الافعال التي فاؤها دال او ذال او طاء او ظاء او ثاء او صاد او سين او زاي او ضاد جواز قلب التاء الى حرف مماثل للفاء اتباعا لها ثم ادغام الحرفين فنقول ادان واذكر واطلم . .

وانما تجري اللغة ذلك لتجعل للحرفين اللذين كانا مختلفين مخرجا واحدا ، فتيسر على الناطق ان ينطق بهما ، كما حدث في الالوان السابقة من اتباع الحركات .

كذلك تخضع المركبات لالوان مشابهة من الاتباع ، اطرد منها ما كان في الفعل المضمف حين يلتقي بساكن آخر . فقد كان الاتباع احد المسالك التي سار فيها العرب للتخلص من التقاء الساكنين . فقالوا : شد الحبل ، ومز ، وعض ، باتباع لام الفعل لفاءه . كذلك لجأ بعضهم الى الاتباع للتخلص من التقاء الساكنين في ميم الجمع ، فقالوا : عليهم الدلة . كقراءة ابي عمرو ، وعليهم القتال كقراءة حمزة باتباع الميم لحركة ما قبلها .

ومن الالوان غير المطردة في التخلص من الساكنين القراءات الشاذة (قم الليل) و (قد استهزيه) و (قالت اخرج) باتباع الحرف الساكن الاول لحركة الحرف الذي بعد الساكن الثاني . .

ومن غير المطرد ايضا قراءة (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله) باتباع الميم للهاء بعدها .

والمقصود بهذه الاجراءات ما قصد بما جرى في المفردات : التخفيف القائم على تماثل العمل الذي تقوم به اجهزة النطق .

وتخضع المركبات لاتباع يجري في الحروف ايضا . اشهر امثله ما جاء في الحديث النبوي : « ارجعن مازورات غير ماجورات » ، فغير موزورات (من الوزر) حولت الى مازورات اتباعا لماجورات .

ومثاله ايضا الحديث النبوي في هذاب القبر : « لا دريت ولا تليت ولا اهتديت » فابدل واو (تلوت) باه اتباعا ليائي الفعلين قبله وبعده .

واقرب الامثلة على ما يشابه هذه الظاهرة ما يكون في بابي الندبة والاستفهام . فالقاعدة في المندوب ان يفتح آخره ثم يشيع الصوت به حتى تتولد الف مثل قولهم : وازيداه ، فان لم يمكن ذلك خوف اللبس اشبهت الكسرة فتولد ياء مثل واغلاميكه ؛ او الضمة فتولد واوا مثل واغلاميوه . فالمندوب يتلى بصوت مماثل لصوته النهائي دلالة على التفجع .

واذا رابك شيء في كلام فاستفهمت عنه منكرا له ، جئت بزيادة في آخر الكلام دلالة على ذلك . فان كان ما قبله مفتوحا ، كانت الزيادة الفا . وان كان مكسورا . كانت الزيادة ياء . وان كان مرفوعا ، كانت الزيادة واوا . وان كان ساكنا ، حركه لثلا يلتقي ساكنا . لان هذه الزيادات مدات ، والمدات ساكن فتحركه بالكسر كما يحرك الساكن اذا لقيه الالف واللام الساكن . فاذا قال الرجل : رايت زيدا . قلت : ازيدنيه . فان قال : رايت عثمان . قلت اعثماناه ؟ لثلا يلتقي ساكنا . ويقول : قدم زيد . فتقول : ازيدنيه . فان قال : رايت عثمان . قلت اعثماناه ؟ فان قال : اتاني ممر . قلت : امروه ؟ فهذه الزيادة المماثلة للصوت المختومة الكلمة به دليل على ما يمثل بنفسه من اتيار .

واذن فقد كانت الزيادة في باب الندبة دلالة على التفجع ، والزيادة هنا رمزا الى الانكار ، وكانت الزيادة في البابين مماثلة للحركة التي تنتهي بها الكلمة التي تلحق الزيادة بها . واذن فهذه الزيادة دلالة على الحالة النفسية التي يعيش فيها المتكلم حين نفوه بها ..

والنتيجة الطبيعية لهذا ان اللغة العربية تلجأ الى اتباع كلمة ما بصوت مماثل لنهايتها دلالة على ما يخلج في وجدان المتكلم من مشاعر . وعلى ضوء من هذا نقول انما الاتباع رمز على حالة شعورية خاصة تملك قائله : قد تكون اعجابا في مثل حسن بسن ، وقد تكون غضبا في الدعاء ... لا ينسب .. فهما اختلف الشعور . فالاتباع رمز له ..

والاصوات التي اضافتها اللغة في امثال الندبة والاستفهام الانتكاري مبهمة ، لم تتخذ شكلا ، ولم تكتسب معنى ، بل بقيت على حالتها الاولى ، مجرد رمز مبهم . وقد وقف كثير من اصوات الاتباع عند هذه المرحلة ولم يتعداها الى مجال الوضوح . فآسر

ومثاله ايضا قولهم : انسى لآتبه بالفدايا وبالعشايا . فجمعوا العشية على العشايا متابعة للفدايا .

كذلك تنوين المتنوع من الصرف في قوله تعالى : (سلاسلوا واهللا) ، نونت سلاسل متابعة لاهللا .

ويمكن ان نجعل منه زيادة (ال) في (يزيد) في قول ابن ميادة :

وجدنا الوليد بن اليزيد مباركا
شديدا باحناء الخلافة كاهله

فربما فعل ذلك اتباعا للوليد .

اذا نظرنا الى هذه الانواع من الاتباع لم نجد المقصود منها التخفيف ، كما كان الحال في الانواع الاولى ، وانما المقصود المشاكلة الصوتية : اعني ان يكون لكل من اللغظين رنين مماثل ، فيقع في الاذن عدبا ، وفي الوجدان حلوا . فالغاية هنا الجمال الصوتي ، الشبيه بما نجد في السجع ، والقافية والجناس .

ونخرج من هذا بان الاتباع في مجاله الاكبر يمنح الناطق خفة وسهولة ، وفي مجاله الاصغر يمنح السامع شعورا جماليا .

فاذا انتقلنا الى ما درسنا من الاتباع وجدناه يستفيد قليلا من المجال الاكبر ، وكثير من الجمال الصوتي .

ونحن حين نمعن النظر في اسلوب الاتباع نجده يشبه اساليب اخرى تعرفها اللغة . فهو في اصله صوت لغوي يتبعه صوت آخر مماثل له ، او ان شئنا الدقة التامة قلنا : صوت لغوي يتبعه صوت آخر مماثل له ، او ان شئنا الدقة التامة قلنا : صوت لغوي يتبعه صوت آخر مماثل لآخر الصوت الاول . فهما صوتان مماثلان في ختامهما ، وفي اكثر الاحيان في القسط الاكبر من بنيتهما . فاذا ما انفقا في حرف واحد ، وجدناهما يتفقان في حرف آخر غير انهما اختلفا في موضعه ، فجعله احدهما اول والثاني وسطا ، مثل قببح شقيبح ، وسليبح مسيبح ..

ابضا من التماثل الصوتي بين التابع والمتبوع . لان
الستمع غير المتنبه يظن انه سمع اللفظ الواحد
مرتين . تحريرا وتوكيدا ..

وصفة القول ان الاتباع ظاهرة لغوية جميلة :
تدل على ما يعانيه المتكلم من انفعال . وتمنع السمع
متعة فنية . ويجب ان تدرس مع منيلاتها من الظواهر
اللغوية التي لا يقعد المتحدث فيها الى الاخبار الجرد .
ويرمي معه الى المشاركة الوجدانية ..

العلماء انه لا معنى له . وثاروا في بضمه اذ حاولوا
ان يلمصقوا له معنى ما . ولكن بعض هذه الاصوات
تمدى هذه المرحلة . واكتسب معنى مستقلا . وبعضها
الاخر اخذ من الفاظ معروفة المعنى . صلحت من حيث
اصواتها لان تكون اتبعا . ولا شك ان امثال هذا
النوع اكتسبت من الاتصال المعنوي بين التابع والمتبوع
توكيدا للفكرة التي تعبر عنها . ولا شك - عندي - ان
النوع الاول . المكون من تابع مبهم . اكتسب توكيدا

